(مطاردة الخيال)

عندما قدّر الله تعالى على خلقه - في العقود الثلاثة الأخيرة - التوجّه إلى التديّن في كل مكان وفي كل ملة، لم يَنبُتْ غرس ما سُمّي بالصحوة الإسلامية في مجالس العلم الشرعي، ولا اعتنى بها علماؤه، ولا قادها الدعاة إلى الله على بصيرة بالآية من كتاب الله تعالى والحديث من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا بالفقه في الدين من أهل الفروض المفضل. بل أراد الله - ولا راد لقضائه وهو أعلم وأحكم - أن ينبت التوجّه العالمي إلى التديّن - فجأة وبلا سبب ظاهر - في أرض سبخة لا يوجد فيها علم ولا عالم بشرع الله، فتيسّر للشيطان - أعاذ الله الجميع منه - أن يحرف عن الوحي إلى الفكر وعن اليقين إلى الظنّ والعاطفة.

ظهر الاتجاه إلى التديّن - أول ما ظهر - في أمريكا وعلى الأخص في ولاية كاليفورنيا حيث يتوفر فيها أكثر من أي مكان آخر الوقت والمال والثقافة للبحث عن جديد. وكان أول دعاة المتصوفة الوثنيين من طائفة كريشنا الهندوسية، وتركزت دعوتهم على ضرورة البحث عن إرضاء الرغبات (والتطلعات الإنسانية) من داخل النفس لا من خارجها، من الروحي لا من الجسد، أو كما يقول النصارى: (من الروحانيات لا من المادّيات).

ولما كانت أمريكا تقود العالم إلى كل تجديد في سُبُل الحياة اليومية، وكانت ولاية كاليفورنيا (مدينة لوس أنجلس على الأخص) تقود أمريكا إلى التجديد المادي والفكري بأنماط (هوليوود) وجاذبيتها بدأ التوجّه إلى التديّن هناك، وقد أتاح الله لي أن أشهد بدايته وتطوّره.

ونشأة النصرانية الحاضرة - مثل الهندوسية - تدعو إلى تغليب الجانب الموصوف بالروحي على الجانب الموصوف بالمادي كانت أول من استجاب لدعوة كريشنا (للبحث عن الذات) فظهر ما سُمّي (بالولادة من جديد)، أي: العودة إلى النصرانية أو الاتجاه إلى التديّن النصراني بعد بضع سنوات من انبهاتي حركة كريشنا.

وبعدها - بما لا يزيد عن سنتين - ظهر الاتجاه إلى التديّن بتيه الطلاب

المسلمة في أمريكا وبدأت (جمعيات الطلاب المسلمة) تحل مكانة (جمعيات الطلاب العرب) الذي احتكر الأخيرة فيما مضى. ولكنه جمعيات الطلاب العرب ثم المسلمة لم تكن مؤهلة لقيادة أفرادها - فضلاً عن بقية الأمة - إلى البر الحق، فلم يكن بها قادة ولا أعضاء علم بشرع الله، وإنما قامت الجمعيات من قبل على الفكر السياسي والقومية العربية، ثم قامت بعد تفسير عوائد على الحركة والفكر السياسي الموصوف بالإسلامي، منشغلة بذلك - وشاغلة غيرها به - عن الوحي والفقه فيه. وكان أبرز فكر انتجه بعض هؤلاء أنفسهم بالإسلامية: فكر سيد قطب تجاوز الله عنا وعنه، وكان أحد المفكرين المسلمين بلسانه الصحافة السلس الذي تستسرهل النفس قبوله والتأثر والتأثير به، والنفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، فلقي دعاة الصحوة الإسلامية الفكرية الحركية في البلاد العربية يشغلون به مجالس الذكر والعلم في المساجد (الاجتماعات وخطب الجمعة والمكتبات ودور القرآن) وفي المدارس (جمعيات التوعية الدينية وبرامج التربية والثقافة الإسلامية والرحلات والمراكز الصيفية). واستغل الحزبيون الحركيون إقبال الشباب - بخاصة - والناس - بعامة - على التدين العاطفي، فقادوهم إلى مناهجهم وأهدافهم وتنظيماتهم المنحرفة عن منهج النبوة.

وبفضل الله كثرت المساجد وكثر المصلون فيها، ولكنه أهمل جانب نشر الاعتقاد والسنة والأحكام الشرعية والتحذير من الشرك والابتداع، وانتشرت جمعيات تحفيظ القرآن، ولكنه أهمل تدبره. وكثر طلب وعرض وسائل نشر التدين الفكري من كتب وتسجيلات ولقاءات وندوات ومهرجانات ومحاضرات، وقلت دروس العلم. وكثر الخطباء والمحاضرون والمفتون والواعظون من القصاص، وقل الإقبال على العلماء بشرع الله وعلى فتاوى العلم الشرعي ودروسه.

ولما مضت سنة الأولين عاد الأقلون من الناس حسباً وشاناً إلى الحق والسنة (من الوحي والفقه فيه)، واتجه الأكثرون شاناً وحسباً إلى الفكر والعاطفة والظن، كما قال فيهم عز وجل: ﴿وما يتبع أكثرهم إلا الظنا﴾، ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾.

وسمت الحركات والجماعات والأحزاب الموصوفة بالإسلامية منذ البداية للاستفادة من هذا الحدث العظيم في تكثير عدد أفرادها وتحقيق ظهورها وغلبتها، وكانت (جماعة الإخوان المسلمين) في ولاية إنديانا من الولايات المتحدة الأمريكية - بعد (جماعة المسلمين السود) أول من تنبه للحدث وحاول استغلاله لصالح حزبه، ولعل لهذا هو السبب في اختيار فكر سيد قطب في البلاد العربية وفكر المودودي في البلاد الأعجمية - وهما وجهان لعملة واحدة - منهجاً للتوجه الجديد إلى التدين بحسن نية وسوء عمل.

وفكر سيد قطب ومثله - بدرجة أقل - فكر المودودي تجاوز الله عنا وعنهما صالح لاجتذاب الناس - وبخاصة الشباب - إلى التدين عامة، ولكنه قاصر بدرجة مخزية - عن قيادتهم إلى التدين الحق كما أوحى الله، وسنة رسوله، وفقه متبعوا سنته، ولم يلتزم أي منهما مسلك العلم الشرعي ولا المنهج الشرعي لتبليغه؛ فلم ينظر في كتبهما أي اهتمام بمنهج النبوة في التدين ولا في الدعوة إليه، ولم يشتمل أي منهما لمعرفة أو تعريف الناس بأهم وأول ما بعث الله به كل رسله في كل زمانه ومكانه وحاله: إفراد الله تعالى بالعبادة ونفرغ مما سواه، بنشر توحيد الله بعبادته، ومحاربة أوثانه المزارات والمشاهد والمقامات التي عاشها كل منهما بنفسه منذ الولادة حتى الموت، ولم يكن أكبر همهما - فيما يظهر من مناهج وإنتاج كل منهما - نشر السنة في العمل بأحكام الشريعة ولا العلم بها، ولا محاربة البدع المسيطرة على القلوب والأعمال والمساجد في بلادهما. كان أكبر همهما في إطار الأحكام الشرعية عامة ما سمي بالحاكمية وهي جزء من توحيد الربوبية أحيي وعرضه ووضع في غير موضعه الذي اختاره الله له.

وكان أهم وسائلهما - وما زال - التفسير والسيرة، والتفسير الحديث - في أحسن أحواله -: تكرار واختصار وترتيب لمؤلفات المفسرين الأوائل، وهو في أسوأ أحواله: قول على الله بغير علم. والسيرة مختلط فيها الصحيح والضعيف والحقيقة والخيال، وهما - وأتباعهما - غير مؤهلين لتصحيح وتمييزها وكان لابد - والحال على ما ذكرت - من أن تنزل (الصحوة الإسلامية)

في مزالق الفكر السياسي الضيق ووسائله العلنية والسرية.
وكان من أبرزها: التكفير والاعتزال والهجرة، والتقمص لمناهج الحزب والإعجاب به وانتقاص غيره، والانغلاق والتقوقع، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، من المسلمين أو من غيرهم، وزعزعة الأمن، وبث الرعب ونشر الفتنة.
وكان أبرز مظاهر هذا الفساد في الأرض: قضية فلسطين؛ كيد الموصوفين بالإسلامية كما كيد القوميين والشيوعيين والنصارى.
وبدأت التفجيرات في أوربا، واختطاف الطائرات الأوربية والأمريكية وتدميرها، وساءت سمعة العرب وهي أهون النتائج سوءا.
واتهم جماعة التكفير والهجرة - ربيبة فكر سيد قطب - بقتل الذهبي العالم المسلم، واعترف أفراد حزب الجهاد (الإسلامي) بقتل السادات ولي الأمر المسلم، وعد مفتي الحزب قتله طاعة لله وتقربا إليه، واغتيل عدد من المسلمين في فلسطين بتهمة التعاون مع اليهود، وحدث أن أعلنت القناة أن المقتول شهيد (بعد ثبوت براءته) بعد أيام من قتله، والله أعلم بمن قتل بريئا ولم يمنح الشهادة ممن لا يملك حق القتل ولا حق الحكم بالشهادة، فذاك لله وحده ولشرعه، ولكنه الظن هو الحكم.
وركبت الصحوة (الإسلامية والقومية) مطايا أكثر إغراقا في الخيال:
١) الفصائل الكوميتية التي أشاع قادة الصحوة أنهم جنود مدربون أعدهم أمريكا لاحتلال حقول النفط، ولا تسأل لماذا تحتاج أمريكا لذلك أو أوربا؟ وهم من التقشف واستخرجه واستعمله لمصلحة الجميع، فالعقل عند الحركيين مثل الشرع في إجازته، هدانا الله وإياهم لأقرب من هذا رشدا.
٢) وجاء الخميني، وأعلنت وسائل إعلامه أنه من أهم أهدافه: تحرير فلسطين، وتسابقه الحركيون لتأييده طمعا - فيما يظهر - في الحصول على نصيب من نجاحه في الاستيلاء على الحكم باسم الدين، ولما خذلهم سعوا لتقليد حركته: الإخوان في سوريا، وأتباع جهيمان في البلد الحرام، وجبهة الإنقاذ في الجزائر - بالوسيلة الديمقراطية ثم بالاغتيالات -.
٣) وجاءت قضية الخلاف على الأرض والسلطة في أفغانستان، ثم (البوسنة الهرسك وكوسفا) ثم (الشيشان)، وتسابقه الحركيون لاستغلالها، ولم تتحرك قلوبهم - فيما يظهر منهم ولا جوارحهم - قبل لإصلاح المعتقد للدعوة إلى السنة ومحاربة الأوثان والبدع التي يتقرب بها الجاهدون

إلى الله من قبل ومن بعد، بل كان قائد المجاهدين العرب الإخواني يحثهم على تأجيل الدعوة إلى التوحيد والسنة حتى تحرير أفغانستان من روسيا ومن جاءت لحمايته من الملاحدة، وماتت تجاوز الله عنا وعنه قبل تحرير البلاد وقبل الدعوة إلى الله على بصيرة. ثم تحاربت أحزاب الجهاد.

٤) واحتل البعث العراقي الكويت بحجة تحرير فلسطين، وفرح الحركيون بنكبة الكويت، ودعوا الله في خطب الجمعة أن تعم النكبة إلى جيرانها، وأعلنوا ولاءهم لصدام الذي جيش حافي حزب البعث (ومعلمه الأول ميشيل عفلق النصراني) مع أنهم يحكمون على الحزب في سوريا بأنه علماني ملحد بالإلحاد، وخذلوا (صدام الذي) فلم يطلبوا نصرة في الكلام، ولكنه كافأهم بمصه المظاهر (الإسلامية) مثل كتابة (الله أكبر) على العلم ليجدوا عذراً في تأييده، وبقي نائبه الأول نصرانياً ونائبه الثاني صوفياً أكثر منا هضة لمزاج النبوة في الذي والدعوة، وبقي حزب البعث يحكم الأغلبية الشيعية والأقلية المنتسبة إلى السنة واليزيدية - عبدة الشيطان - والنصارى عبدة المسيح بعقيدة وثنية.

ونعود الحركيون بدعوى حزب البعث أن القوات الدولية التي حشدها الله لرد عدوانه) إنما جاءت للتنصير والاحتلال، كأنهم يحلمون أن لها علمانية - في وصفهم لها - وأن الاحتلال العسكري انقرض قبل عشرات السنين، ولم يتذكروا بقاء الأوثان تملأ السهل والجبل في بلاد العرب والعجم؛ في العراق وأفغانستان والبوسنا والشيشان، وهي أكبر الكبائر؛ لا تحوجهم إلى اختراع الهدف خيالي لحروبهم المبتدعة.

٥) وجاءت القوات الدولية مرة أخرى ونجحت في تحرير العراق من طغيان صدام الذي وحزبه وبطانته، وعاد الحركيون يتردون إشاعة (هولاكو الجديد صدام حسين) القديمة المتجددة بأنه لهذه القوات جاءت للتنصير والاحتلال، وعدوا قتال المسلمين الجهاد في سبيل الله.

٦) أضيفت أسماء جديدة للأشياخ الذين يرفعهم الحركيون أعلاماً وقدوة منذ المقتصم الحاكم الفاشم الذي عاصره ومات وهو كافر للعالم الشرعي، تولى كبره في فرصه بدعة خلق القرآن وحبسه الإمام أحمد وتعذيبه إلى عز الذي القسام الذي لا يعرفون له سابقة في الدعوة إلى التوحيد والسنة بل لا أحد يهتم بمعرفة مدى التزامه بهما، إلى محمد الدرة طفل قتل في أحداث الانتفاضة بيد اليهود والمنتفضة عليهم لا يدري أيهم

قتله، ولم يكن له من المشاركين في الانتفاضة، ولما وجد المصور أنه آلته التقطت مشهد موته، عرف أنه عثر على كنز من كنوز الإثارة والمنفعة، وأخيراً خراف (منقاسة) في سلسلة الأشياء التي يحرك الجماهير المتدينة بها عواطف الفوضاء ويسيرونهم في طريق المنكر.

ولا تعجب إذا رأيت أحد المعلمين الجامعيين عن هذا التخريف والخداع تجد التشجيع والإلهام، ولو كان باطلاً، واستدل (بإعجاب العرب بخرافة (وامقصاه) منذ أكثر من عشرة قرون رغم أنه لا أحد يملك القدرة على إثبات الرواية)؛ وهذه نتيجة عدم الرد إلى الكتاب والسنة والفقه، بل إلى العقل والفكر حتى اتجه المعلومة والمتعلمون في الضلال والخيال.

وأعجب من هذا أن يتكلم بعض المعلمين الجامعيين في إحدى الفضائيات عن احتمال ضرب الكعبة بالقنبلة الذرية كأنه القابل للذرية سلاح يمكن استعماله، بل وكأنه استعمل مرة واحدة بعد تجربته في اليابان قبل خمسين سنة، يا حسرة على العباد وعلى الشرع والعقل.

وفي رأيي، لا أعدى للمسلمين من أنفسهم وشياطينهم، ولا خطر على الإسلام أكثر من خطر المنتسبين للتعليم المشغلين عن يقين بفكرهم وظنهم (١) وحتى تستمر مكيدة الشيطان والنفس والهوى صرف الثلاثة الحركيين وأتباعهم عن علماء الأمة فاختاروا بعض طلبة العلم القاصرين عن مراقيه العالية (ولم يحملوا ألقاب الفريقة أو لم يحملوها)، وكافأهم هؤلاء بالفتاوى التي ترضيهم تعدياً على شرع الله وتجاوزاً لحدوده.

وختاماً أرجو الله أن يتجاوز عن الجميع ويردهم إلى دينه رداً جميلاً.

وعلى كبار علماء التوحيد والسنة - لا المتفيهقين ولا المفكرين، وأكثر فضلة الألقاب الدراسية منهم - تحمل مسئولياتهم وأداء الأمانة التي حملوها (وسيحاسبون عليها) والسعي حثيثاً لتصحيح الاتجاه الديني وبيان الحق للناس ولو غضب أكثر العلم - ومحاولة صرفهم - بالجد والمثابرة - عن الفكر والظن والخيال إلى الوحي واليقين.

وعلى ولاة أمر المسلمين أن يطهروا وسائل الإعلام العامة والخاصة من الفكر المنحرف ولو وصف زوراً بالإسلامي، ومن دعاة الحزبية أو المخادعين، ومن تدخل غير علماء الأمة المعتبرين في أمور الدين من فتوى وتأويل وانتقاد؛ استجابة لأمر الله وشرعه.

ولهدى الله الجميع لأقرب من هذا رشداً.

١٤٢٤/٧/٢١